لكل أجل كتاب

لا أستطيع أن أدّعي العلم بتفسير هذه الآية الكريمة علماً لا ينازعني فيه الكثيرون من أهل الفضل. ولا أستطيع أن أجاري الذين يأخذون هذه الآية على ظاهرها، فيقولون بأن معناها منصب على الأعمار والآجال باعتبار ما تلاها من الآيات، ثم يختمون اجتهادهم بالوقوف عند هذا المعنى وحده. بل أذهب الى أن هذه الآية أكثر من معنى، فكما أنها تنصب على الأعمار والآجال، كذلك هي تشير إشارة خاصة الى معنى من معاني التطور الاجتماعي، وتلمح الى أن النظامات المدنية انما تتغير بتغير الزمان، وتتفاوت بتفاوت العلم والعقلية، وتتفاضل بتفاضي الناحية التي ينظر منها الناس الى حقائق الحياة وحقائق الوجود، وانه يقتضي ذلك تغيير النظامات وتبدّل الأوضاع الاجتماعية والفكرية، وأنه يقتضي ذلك تكييف النظم وتعديل الشرائع من حيث حاجات البشر الى التطور، ومن حيث أن البشر مجبولة ليست في يد المقدرات الطبيعية والغيبية، فيكون لكل زمان من الأزمنة، ولكل عصر من العصور، لوناً من الشرائع وضرباً من النظام يختلف عن اللون الذي يلابس الشرائع والنظم في غيره من الأعصر، وبذلك تماشي الشرائع حاجات الناس ويعاشي الناس روح الشرائع، حتى لا يقف دولاب الرقي الانساني عن دورته الطبيعية المقدورة، ولا تتخلف الشرائع عن مسايرة الحاجات التي تتطلبها الحياة الاجتماعية، فيكون لكل زمان لباس خاص من الشرائع، وصورة بعينها من النظام، ولون بذاته من الفكر، ويكون إذن « لكل أجل كتاب ».

أجملت هذه الآية معنى التطور الانساني برمته في ثلاث كلمات. فان تاريخ الانسان يدل دلالة قاطعة ان له عصراً عمت فيها الجهالات وأسفت فيه الأخلاق وأعمت فيه كل المعاني القدسية التي تنزل الآن من مدنيتنا، وعن كل المدنيات الرهيبة: المنزلة الأولى في تقدير العقل والمشاعر. كان الانسان في ذلك العصر حيواناً يأكل إذا جاع ويجوع إذا لم يجد، ويفترس

إذا اشتدت به نداءات الاحتفاظ بالذات، ويموت مأكولاً إذا ما عجز عن الدفاع عن نفسه، يتخذ من الأشجار بيوتاً ومن المغاور والكهوف مكناً. فضيلته أن يسد حاجات الطبع المادي: فصحت وقائع وتحالفت فضائله، وكانت هذه الشريعة في الواقع شريعة ذلك الزمن وقانون ذلك العصر: قانون القوة والفوضى، قانونه كي آكلاً قبل أن تكون مأكولاً».

عاش الانسان في ذلك العصر فرداً همه من الحياة أن يرد عنها عادية الموت والفناء، وان يسد حاجات الجسد وحسبها، فعاش عيش البهائم السائمة، وكان قانونه في ذلك الحين، قانون كل سائمة من الحيوان.

تكونت بعد ذلك الأسرة، ومن الأسر تكونت القبيلة، ومن القبائل تكونت الأمم والشعوب. وفي هذا السطر وحده طويناً من عمر الدنيا الآلاف المؤلفة من السنين، وقطعنا عشرات المئات من القرون، لنجد الانسان من بعد ذلك يحجر الأديان الأولى يدرج نحو الروح بعد أن قضت عوامل التطور على الزمن وعلى النظام الذي درج فيه الانسان في حجر المادة. وإذن فقد دلنا حقائق هذه الحياة البشرية دلالة صادقة على أن الانسان لم يجمد في عصر من عصوره ولا استحجر مستعصياً على سنن التطور الأبدية أن يتبدل من سائمة إنساناً، وأن يخرج من صلب المادية بشراً سوياً. سويّ النظام، سويّ المطلق، سويّ الروح، كأنما هذه طبيعة أن يكون من التطور والى التطور، وان الحياة تطور صرف نشهده في تقلب المخلوق الآدمي منذ أن يكون نطفة فعلقة فمضغة فعظاماً تكسى لحماً. ثم طفلاً ثم يافعاً ثم شيخاً ثم فيلسوفاً من طراز سقراط أو نبيّاً يهدي الناس الصراط المستقيم. ومثل الفرد في تدرجه من النطفة الى النبي، كمثل الجمعية البشرية في تدرجها من إنسان كأنه سائمة الى انسان الحضارة الجديدة، إذ تحتاج في كل طور تجتازه الى شريعة والى كتاب، فشريعة المضغة ليس هي شريعة الطفل، وشريعة الطفل ليست هي شريعة اليافع، وشريعة الفتى غير شريعة الكهل، وشريعة الأنبياء ليس هي بذاتها شريعة الفيلسوف، ولا شريعة الفيلسوف هي بذاتها شريعة النبيّ. وإذن يكون لكل حال شريعة، وإذن يكون لكل أجل كتاب.

ماذا نقصد بتفسير هذه الآية هذا التفسير، وما هو الحق الثابت الذي يدور من حوله

المعنى المدرك من أن لكل زمان شريعة ؟ نقصد أن جوهر الحق ثابت ، وكذلك يكون لكل شريعة جوهر ثابت . لأن معنى الشريعة أن يكون في الضمير الانساني نزعة الى معرفة الحق ونبع يفيض دائماً بمعنى الحق . وأول حق للإنسان في هذه الدنيا هو حق الحياة . ولكن على أي وجه من وجوه الحياة تتكيف الصورة التي تلابس هذا الحق ؟ الواقع أن هذه الصورة تختلف باختلاف الأزمان والأحوال ومراتب الرقي أو الاسفاف التي تكون عليها جماعة من الجماعات . فالحق باعتباره مفهوماً ينطوي عليه ضمير الانسان ، كذلك الشريعة فما مفهوم كلي ثابت . ولكن الصورة التي تتكيف بها هي التي تجري عليها سنن التطور ، وهي التي تجري عليها ملابسات الحالات الناشئة بتغير الظروف والأوضاع وإذن يكون لكل زمان شريعة . وإذن يكون لكل أجل كتاب .

* * *

في هذا كثير من الحق . فإن الزمن الذي كنا نعدّ فيه لأعدائنا من رباط الخيل ، زمن قد مضى أهله ومضت ملابساته . وجاء الزمن الذي نعدّ لهم فيه المدفع والبارجة والدبابة والقنبلة الذرية . الشريعة الثابتة وجوهر الطبع الذي لا يتغيّر هو أن يعدّ الانسان لنفسه آلة الدفاع من عدوّه . ولكن اذا دارت عجلة الزمان وأصبح رباط الخيل عدة الخاسرة في التناحر على البقاء ، وجب ، وإن كل جوهر شريعة الدفاع عن نفسه واحداً لا يتغير ، أن تتغير وسائله بمقتضى التطور الذي أصاب العلم والفكر ، ويقتضي الصورة التي استطاع الانسان بعقله أن يجعلها تلابس المادة التي هي أداته في هذه الحياة . كنا نتخذ فيما مضى السيوف والحراب والسهام آلة للدفاع عن النفس مطاوعة لوحيات شريعة البقاء التي هي ثابتة . ولكن هذه الصورة التي لابست عدّة هذه الشريعة قد تكيفت الآن ، فهل نكون سيّانين إلى الحياة وإلى إدراك الحقائق وإلى الفهم الصحيح ، إذا ربطنا بين الشريعة وأدواتها ، وقلنا إن الصورة التي صلحت عدة لشريعة ما قد تصلح لجميع الأزمان ولجميع الظروف وعند جميع الناس وفي مختلف بقاع الأرض ؟ اذا أثبتنا على ذلك فإنما نكون متخلفين عن زماننا ، جانحين إلى الجمود الذي لا مسايرة فيه لمقتضيات الحياة المادية والعقلية .

مثلك في ذلك مثل انسان نشأ في خط الاستواء ثم أراد أن يزور قطب الشمال ، فذهب

اليه في أعماره التي لا تستر من جسمه شيئاً ، نازعاً الى الاعتقاد بأن شريعة الاصطفاء هي شريعة القطب وأن الحياة هنا هي الحياة هناك ، وان ما ورث عن الآباء صالح لكل بيئة ولكل زمان ! وما جئنا بذلك إلا لنقول إن بين شرائع القوامر المادية وشرائع القوامر العقلية والروحية ، فيما رأي شبه . فان صورة ما من صور الفكر أو الخلق أو الوضع الاجتماعي قد تصبح في زمن وفي بيئة وفي جماعة من الناس ، وبينها وبين الحاجات الضرورية للحياة بوناً شاسعاً وصدعاً متنائياً ، كذلك الصدع الذي يفرق في الطبيعة بين خط الاصطفاء بعضائه ، وقطب الشمال بزمهريره الذي يفري الوجوه .

نضرب لذلك أمثالاً من شريعتنا الاسلامية . فالبر بالفقير والمسكين وابن السبيل من الأحياء التي تدخل في شريعة الاسلام مدخل الأمر القاطع . ولذلك شرعت الديانة الاسلامية مبدأ الزكاة ، وجعلت له حدوداً محدّدة بما قام في زمان من حاجات الفقير وقدرة المزكي . ولكن حاجات الفقير تضاعفت وزادت ، وقدرة من تجب عليهم الزكاة تضاعفت أضعافاً . وأصبح ما كان يجري مجرى المثل الخيالي من القول بأن هنالك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، حقيقة واقعة في هذا الزمن . وكان الفقراء والمساكين كما كانوا في جميع العصور وفي العصر الحاضر كثرة بالنسبة الى جانب قلة يأكلون الأموال بالباطل . فهل نستطيع أن نقول ان مبدأ الزكاة عن المال وعن النفس وإن ظل قائماً بجوهره ، يجب أن يتعلق جوهره بأعراضه التي أصبحت في هذا الزمن كأنها الحياة الى جانب حاجات هذا المجتمع ، والى جانب الثروات التي استجمعت في أيدٍ زادها الغنى نهمة الى المال وزادتها القوة والسلطان جشعاً في سبيل الدنيا ؟

نرجع بعد ذلك الى الجهاد في سبيل الله أو في سبيل الذات . كانت عدة الجهاد فيما مضى سيف ودابة لمن استطاع أن يكون له دابة . فما عدتنا اليوم ؟ عدتنا النيالق المجهزة بأدق الآلات الشيئة والبوارج التي تمخر البحر كالأعلام والطائرات التي تكفي نفقات واحدة منهن لتجهيز جيش برمته في الأزمان السالفة . فهل يكفينا اليوم لتجهيز جندي محارب ما كان يكفي جندياً في جيش بن الوليد أو أسامه بن زيد . وهل يكفينا من الخراج ما كان يكفي حكومة اسلامية في الصدر الأول من الاسلام ، وهل نستطيع أن نقول أننا أعددنا عدة

الجهاد ونسبة ما نجبي اليوم من أصحاب الملايين هي نسبة ما كان يجبيه عمر بن الخطاب ، إلا ونكون الى اللهو أدنى ، والى انكار واقع الأمر من الحياة أقرب شيء ؟ أما والأمر على ما رأيت ، فإن لكل زمان شريعة ولكل أجل كتاب .

* * *

في هذا كثير من الحق . وإذن نخلص منه الى سؤال : ما هي الغلالة التي تأثرت بها شريعتنا التي نعتقد أن جوهرها هو الحق الذي ثبت في قلوبنا باعتبارنا بشراً ، وتشربته عقولنا وأفكارنا باعتبار أننا أهل عقيدة مزاجها ثابت ثبوت الرواسي ، وإيمان روحه من الحق والى الحق . الغلالة أو الصورة التي ينبغي أن تلابس شريعتنا السمحة بمقتضى تطورنا الذي تعلمنا فيه شوطاً مداه خمسة عشر قرناً من عمر هذه الدنيا ، إنما تستمد من نسيج يلائم المحيط الذي نحن نكتنفنا في العصر الذي نعيش فيه ، محيط شعرنا فيه بأن الظلم واقع ونحن لا ندفعه ، وأن الفقر كائن ونحن لا نقتله ، وأن المرض فتّاك ونحن لا نقاومه ، وأن الجهل فاش ونحن لا نناجله ، وأن الأخلاق دنية ونحن لا نقوّمها ، وأن المطامع فاضحة ونحن لا نكبتها ، وأن الضلالة قائمة ، والحقيقة نائمة ، وأن العدل ضياع ، والظلم فناع ، وأن الصراحة قتل ، وان صبيل المجد كيد وختل . إن عدتنا في ذلك أن نقول ، ونقول بحق « لكل أجل كتاب »

لقد مضى ولله الحمد من ذلك الزمن الذي كان أسلافنا في عصور انحدارهم يرون فيه الظلم لزاماً ، والفقر لجاماً ، وأن المرض بلية ، والجهل عطية ، وأن دنايا الخلق سبيل الرشد ، وأن الطمع طريق الجاه ، وأن الضلالة إذا لم تصبك خطيئة أنها عنك بمنأى وأنت منها بمنجى ، وأن العدل اذا ضاع فما عليك ضياعه إذا لم تفجع في مال ولا ولد ، وما عليك أن تسكت عن الحق فلا تصارح به ولو أصبحت في دين الله شيطاناً أخرس ، وفي ذمة الرجولة خنثى ، فلا أنت بذكر ولا أنت بأنثى .

الغلالة التي توائم روح عصرنا ومحيطنا ، وتتفق ومدرج الحياة الذي درجنا فيه هي الغلالة التي ترددنا مسلمين أحراراً في أفكارنا وقلوبنا ، وأن نتخذ من الأيمان الثابتة قوة ندفع بها الظلم ونحطمه ، ونقتل بها الفقر وندفنه ، ونقضي على الجهل ، ونروي بقوانا

كلها على المرض : مرض الأجسام ومرض النفوس ومرض العقول ، وأن نصارح أنفسنا ونصارح الناس بالواقع ، ونعمل على أن لا نكون شياطين خرساً نعرف الحق ونسكت عن الحق . وفينا اليوم من القوة ومن البأس ومن الرجولة والفتوة والايمان ، ما لو أردنا أن نزحزح به الجبال لزحزحناها أو نخرق به الأرض لخرقناها ، ونقذنا من أقطارها الى الحق والى العدل والى الغنى والجاه ، ليكون من نصيب الناس أجمعين ، لا من نصيب من قست قلوبهم فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة ، وانضمت نفوسهم فأصبحت كضآلة الشيء ضررها واقع ونفعها بعيد ، أولئك الذين هم يعلمون أن جاههم سبيله العدوان وماله طريقه الظلم الصارخ ، وان دعتهم مسلوبة من دماء غيرهم ، من غير أن يؤدوا حتى أمانة القول بأن هنالك ظلماً يجب أن يدفع وأن هنالك ملايين من البشر خوت بطونهم وتعرت أجسامهم وفرغت عقولهم وفسدت نفوسهم وارتجت أرواحهم في صدورهم .

***

لكل أجل كتاب ، ولكل زمان شريعة . ذلك ما يمليه طبع الحياة وطبع الأشياء ، وذلك ما يثبته تاريخ الانسانية الطويل في كل مراتب التحول التي مضى فيها الانسان خلال جميع الأزمان . فما هو إذن طبيعة الطور الانتقالي الذي نقف على عتبته ونكاد ندلف من بابه عزلاً من كل سلاح اللهم الا ايماننا بأننا مقدمون على عصر ستكثر فيه الأحداث وتتوالى فيه التغيرات ، وسوف تكتنفنا فيه كثير من قوات الشر وتتساورنا فيه أبالسة من أهل الجحود ، فئة منهم من أهلنا ، وفئة من عدونا ؟

نخطىء كثيراً إذا نحن مضينا نعتقد أن الأساليب التي جرينا عليها في تاريخنا القريب تصلح هي بذاتها لزماننا هذا ، ويتضاعف خطؤنا وتزداد المخاطر التي نحف بمجموعتنا إذا نحن أدركنا الخطأ ولم نعترف به ولم نعمل على حربه الحرب العوان ، لأن الخطر الأكبر ليس في أنك ترى الخطر ، ولكن في أنك لا تدرك مقدار الخطر الذي يلم بك ، وليس الضعف في أن تكون ضعيفاً وحسب ، بل الضعف الأكبر هو شعورك بالضعف ، كما أن القوة هي في الواقع شعورك بأنك قوي .

وكذلك نخطىء إذا لم نقدر التقدير الكافي ألوان المخاطر التي تحتد في جميع مرافق حياتنا داخلية وخارجية ، ونخطىء إذا نحن اعتقدنا أن الحياة سبيل واحدة ووتيرة واحدة ، وأن

أحداثها لن تنال منا في المستقبل أضعاف أضعاف ما نالت منا في الماضي. فالواجب أن نفتح أعيننا على حقائق الحياة وان نعلم، أول ما نعلم، أن ما بنينا من مجد في جهادنا القريب قد يمحى ويزول بقليل من الضعف يتغلغل في قلوبنا وقليل من التدابير يدب في صفوفنا، وقليل من المطامع تأكل صدورنا، وقليل من التهاون يطبع بحريتنا واستقلالنا وبجميع ما رأينا من الصدوع التي خلفناها من ورائنا. فالأعين من حولنا مفتحة والأيدي الطامعة تمتد البنا مجهزة بكل عدة وسلاح، والخطر ماثل أمامنا منذر لعيني النائمة إذ يقول:

فانك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
خطا طيف حجن في حبال متينة تمد بها أيد إليّ نوازع

فان تطاحن المبادىء الاجتماعية التي تغلبها مطامع ليس لنا فيها ناقة ولا جمل، ولا نحن منها في الخير ولا في الشر، تهب على هذه الدنيا لفحاتها المستعرة، وشرورها المستطيرة، لفحات الحرب وشرور التخريب والتدمير، فكيف بنا اذا هبت رياحها ونحن عزل من سلاح المادة وسلاح الفكر، وكيف بنا اذا اهتاجت من حولنا الأعاصير ونحن نجهل من أين مهابها وما هي مراميها وماهي بواعثها، وكيف بنا اذا نحن فهمنا منها كثيراً من أوجه الخطأ وغاب عنا كثير من أوجه الصواب، وكيف بنا اذا هي تسعرت ونحن على ما كنا استكانة وفساداً وفقراً وجهلاً ومرضاً وخسة في الأخلاق وانحلالاً في الأرواح وتطوحاً مع المطامع الفردية والاصفادات النفسية، وشعورنا دائماً بأن الجمعية لا كفالة عندها للفرد، وأن الفرد لا كفالة عنده للجمعية.

ذلك كله يجعلنا نفكر ونفكر طويلاً في اللون الملائم الذي يتطلبه زماننا وظروفه القاسية، لنلبس شريعتنا الجديدة إياه، شريعة القوة والقدرة، وما هي وسائلنا الى القوة وما هي وسائلنا الى القدرة، وما هو الكتاب الذي ينبغي أن نجعله نبراسنا في هذا العصر الشامخ الذي يتطلع أهله كل يوم الى جديد من العلم والى جديد من الخلق والى جديد من الأساليب؟

ان وسيلة الحياة في هذا العصر أن نكون رجالاً نؤمن بالحق، وأرواحاً ترضى بالتضحية، وصواعد تعمل عند الحاجة كما عملت صواعد أسلافنا عند ما حطموا المظالم وأقروا الحقوق فأقروا الحياة وهدموا التحجر.

ا. م